الصِّيَامُ

إنَّ اللهَ جلَّ جلالُه قد امتنَّ على عبادِه بموسمِ الخيراتِ ، فيها تضاعَفُ الحسناتُ ، وتُمحَى السيئاتُ ، وتُرفَع الدرجاتُ ، تتَوَجَّه فيها نفوسُ المؤمنين إلى مولاهَا ، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾

[الشمس : ٩-١٠]

وإنّما خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ لعبادتِه ، فقالَ :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

ومِنْ أَعْظَمِ العباداتِ الصيامُ الذي فَرَضَه اللهُ على العبادِ ، فقال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

ورَغَّبهم فيه ، فقال :

﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٤] .

وأَرْشدَهم إلى شُكْرِه على فَرْضِه ، فقال :

﴿ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

وحَبَّبَهُ إليهم ، وخَفَّفَهُ عليهم لئلاَّ تستثقِلَ النفوسُ ترْكَ العاداتِ ، وهجرَ المألوفاتِ ، فقال تعالى :

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة : ١٨٤] .

ورَحِمَهم ، ونأى بهم عن الحرجِ والضَّرَرِ ، فقال تعالى :

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة : ١٨٤] .

فلا عَجَبَ أنْ تُقْبِلَ قلوبُ المؤمنين في هذا الشهرِ على ربِّها الرحيمِ ، يخافونه مِن فوقِهم ، ويرجُون ثوابَه ، ويخشَوْن عقابَه .

إنّ الصومَ عبادةٌ مِن أجلِّ العباداتِ ، وقربةٌ مِن أشرفِ القرُباتِ ، وطاعةٌ مباركةٌ ، لها آثارُها العظيمةُ والكثيرةُ والعاجلةُ والآجلةُ ؛ مِن تزكيةِ النفوسِ ، وإصلاحِ القلوبِ ، وحفظِ الجوارحِ مِنَ الفتنِ ، والشرورِ ، وتهذيبِ الأخلاقِ ، وفيها مِن الإعانةِ على تحصيلِ الأجورِ العظيمةِ ، وتكفيرِ السيِّئاتِ المُهلِكةِ ، والفوزِ بأعلى الدرجاتِ .

والصومُ عملٌ اختَصَّهُ اللهُ مِنْ بَيْنِ سائرِ الأعمالِ ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : قَالَ اللهُ : « كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إلا الصِّيَامَ ، فَإِنَّهُ لِي ، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ . . . »[1] .

فَكَفَى بذلك تَنْبيهاً على شَرَفِهِ ، وعِظَمِ مَوْقِعِهِ عندَ اللهِ ، ممَّا يُؤذِنُ بِعِظَمِ الأجرِ عليهِ ، وفي إضافةِ اللهِ تعالى الجزاءَ على الصيامِ إلى ذاتِه العلّية تنبيهٌ على عِظَمِ أجرِ الصِّيامِ ، وأنه يُضاعِفُ عليه الثوابَ أعظمَ مِن سائرِ الأعمالِ ، ففي صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعمِئَة ضِعْفٍ ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : إلا الصَّوْمَ ، فَإِنَّهُ لِي ، وَأَنَا أَجْزِي

(١) البخاري (٥٥٨٣) ، مسلم (١١٥١) .

بِهِ ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي ، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ : فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ ، وَلَخُلُوفُ فِيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ »(١) .

فما ظنُّ المسلمِ بثوابِ عملٍ يجزي عليه الكريمُ الجوَادُ بلا حسابٍ ، ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس : ٥٨] .

إنّ الإخلاصَ أَظْهَرُ في الصيامِ مِنْ غيرِه مِنَ العباداتِ ، فإنه سرٌّ بيْنَ العبدِ وربِّهِ ، لا يطَّلِعُ عليه غيرُه ، إذْ بإمكانِ الصائمِ أنْ يأكلَ ، ويشربَ متخفياً عنِ النَّاسِ ، فإذَا حَفِظَ صيامَه عن المفطراتِ ومنقصاتِ الأجرِ دَلَّ ذلك على كمالِ إخلاصِه لربِّهِ ، وإحسانِهِ العملَ ابتغاءَ وجهِهِ ، ولذا يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ في الحديثِ القدسيِّ : « يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي »(٢) ، فَنَبَّهَ سبحانه على وِجهةِ اختصاصِه ، وبالجزاءِ عليهِ ، وهو الإخلاص .

والصِّيامُ جُنَّةٌ ، يَقِي الصائمَ مَا يَضُرُّه مِنَ الشهواتِ ، ويُجَنِّبُه مِنَ الآثامِ التي تَجعلُ صاحبَها عُرضةً لعذابِ النَّارِ ، وتُورِثُه الشقاءَ في الدنيا والآخرةِ ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ شَبَاباً لاَ نَجِدُ شَيْئاً ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ : « يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ ، مَنِ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ »(٣) .

ومعنى ذلك أنَّ الصومَ قَامِعٌ للشهوةِ ، فَيقِي صاحبَه عَنَتَ العُزُوبَةِ

(١) البخاري (٥٥٨٣) ، مسلم (١١٥١) ، واللفظ له .
(٢) البخاري (١٧٩٥) ، مسلم (١١٥١) ، واللفظ له .
(٣) البخاري (١٨٠٦) ، مسلم (١٤٠٠) .

ومخاطِرَها ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللهُ عَنْهُ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « قَالَ اللهُ : كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصِّيَامَ ، فَإِنَّهُ لِي ، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلا يَرْفُثْ ، وَلا يَصْخَبْ ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ : إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ[1] ، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا : إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ »[2] .

وفي المسندِ عَنْ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّمَا الصِّيَامُ جُنَّةٌ يَسْتَجِنُّ بِهَا الْعَبْدُ مِنَ النَّارِ ، هُوَ لِي ، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ »[3] .

مِن فضائلِ الصَّومِ أنّه مِنْ أسبابِ استجابةِ الدعاءِ ، ولعلَّ ورودَ قولِه تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة : ١٨٦] بعد آيات الصيام ما ينبه على الصِّلةِ الوثيقةِ بين الصيامِ وإجابةِ الدعاءِ .

ومنْ فضائلِ الصَّومِ أنّه مِنْ أسبابِ تكفيرِ الذنوبِ ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ : « الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ »[4] .

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (٤/ ١٠٥) : « واتفقوا على أن المراد به تغير رائحة فم الصائم بسبب الصيام » .

(٢) البخاري (١٨٠٥) ، مسلم (١١٥١) .

(٣) مسند الإمام أحمد (١٥٢٩٩) ، قال المناوي في فيض القدير (٤/ ٤٧٠) : [وأصل الجُنَّة ـ بالضم ـ التّرس ، شبَّه الصومَ به لأنه يحمي الصائمَ عن الآفاتِ] .

(٤) مسلم (٢٣٣) .

ومِن فضائلِ الصومِ أنّه يشفَعُ لصاحبِه يومَ القيامةِ ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَقُولُ الصِّيَامُ : أَيْ رَبِّ مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ : مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ ، قَالَ : فَيُشَفَّعَانِ »[١] .

ومِنْ فضائلِ الصَّومِ فَرَحُ الصائمِ بِمَا يَسَّرهُ اللهُ له مِنَ الصَّوْمِ في العاجلِ والآجلِ ، كما في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا : إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطْرِهِ ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ »[٢] وهذا مِن الفرحِ المحمودِ ، لأنّه فرحٌ بفضلِ اللهِ ورحمتِه ، ولعلَّ فرحَه بفطرِه لأنّ اللهَ منَّ عليه بالهدايةِ إلى الصيامِ ، وبالإعانةِ عليه حتَّى أَكْمَلَهُ ، وبما أَحَلَّه اللهُ له مِنَ الطيِّباتِ التي يكسِبُها الصائمون لذّةً وحلاوةً لا تُوجَدُ في غيرِه ، ويفرحُ عندَ لقاءِ ربِّه ، حين يلقَى اللهَ راضياً عنه ، ويجدُ جزاءَه عنده كاملاً موفوراً .

ومما يدلُّ على فضلِ الصيامِ ، وطِيبِ عاقبَتِه في الآخرةِ حديثُ : « كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصَّوْمَ ، فَإِنَّهُ لِي ، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ ، وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ »[٣] .

وإنَّما كانتْ هذه الريحُ طيِّبَةً عندَ اللهِ تعالى مع أنّها كريهةٌ في الدنيا ، لأنّها ناشئةٌ عن طاعةٍ ، فهي محبوبةٌ لديه ، ولعلَّ في الحديثِ الشريفِ

---

(١) مسند الإمام أحمد (٦٦٢٦) .
(٢) البخاري (١٨٠٥) ، مسلم (١١٥١) .
(٣) البخاري (٥٥٨٣) ، مسلم (١١٥١) عن أبي هريرة .

ما يشيرُ إلى أنّ هذا الخلوفَ الذي يفوحُ يومَ القيامةِ مِن فمِ صاحبِه أَطْيبُ مِن ريحِ المسكِ ، حين يقفُ بينَ يَدَيْ ربِّه ، مَثَلُه كَمَثَلِ الشهيدِ حينَ يأتي يومَ القيامةِ ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَا مِن مَكْلُومٍ يُكْلَمُ[1] فِي سَبِيلِ اللهِ إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَكَلْمُهُ يَدْمَى اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ ، وَالرِّيحُ رِيحُ مِسْكٍ »[2] .

ومِن فضائلِ الصيامِ أنّ اللهَ اختصَّ أهلَه ببابٍ مِن أبوابِ الجنةِ ، لا يدخلُ منه سواهم ، فيُنَادَوْنَ منه يومَ القيامةِ إكراماً لهم ، وإظهاراً لشرفِهم ، كما في الصحيحين عَنْ سَهْلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَاباً يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ ، يُقَالُ : أَيْنَ الصَّائِمُونَ ؟ فَيَقُومُونَ ، لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ ، فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ »[3] ، انظروا كيفَ يُقَابَلُ عَطَشُ الصائِمِ في الدنيا ببابِ الريَّانِ في الجنةِ ، في يومٍ يكثرُ فيه الظمأُ .

إنّ شهرَ رمضانَ شهرُ الصبرِ ، فالبناءُ الأخلاقيُّ أساسُه الصَّبرُ ، الذي هو قرينُ الصومِ ، وسَمِيُّه ، حتّى سُمِّيَ الصومُ صَبْراً ، كما قالَ بعضُ المفسرين في قولِه تعالى :

---

(١) قال ابن حجر في الفتح (٦/ ٢٠) : [قوله لا يكلم بضم أوله وسكون الكاف وفتح اللام أي : يجرح] .

(٢) صحيح البخاري (٥٢١٣) ، مسلم (١٨٧٦) .

(٣) صحيح البخاري (١٧٩٧) ، مسلم (١١٥٢) ، قال النووي في شرح صحيح مسلم (٧/ ١١٦) : [قال العلماء : سمِّيَ بابَ الريانِ تنبيهاً على أنّ العطشانَ بالصومِ في الهواجرِ سيُرْوَى ، وعاقبتُه إليه ، وهو مشتقٌ من الري] .

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة : ٤٥] ، قالوا : الصومُ والصلاةُ ، وسُمِّيَ رمضانُ شهرَ الصبرِ ، والصبرُ جزاءُه الجنةُ ، وهو سيِّدُ أخلاقِ الإسلامِ ، وبغيرِه لا يثبتُ المسلمُ أمامَ التَّحَدِّيَاتِ في دينِه ، ودعوتِه ، ولا يتحَمَّلُ مشكلاتِ الحياةِ ، وتبعاتِها ، ومصائِبها التي لا ينفكُّ عنها بحالٍ ، فالفوزُ في الآخرةِ ، والسعادةُ في الدنيا ثمرتان مِن ثمارِ الصبرِ .

الصبرُ هو إكسيرُ الحياةِ الذي يُحوِّل بإذنِ ربِّه الصعابَ إلى رغائبَ ، والهمومَ إلى أفراحٍ .

والصبرُ هو علاجُ كلِّ داءٍ ، وحلُّ كلِّ مشكلةٍ ، وتذليلُ كلِّ عقبةٍ ، ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران : ١٢٠] .

ويَتَجَلَّى البناءُ الأخلاقيُّ في الرُّقِيِّ بالنفسِ إلى مدارجِ العبوديةِ ، والتخفُّفِ مِن أوزارِ الطينِ ، وثِقَلِ الأرضِ ، لتستشرفَ النفسُ آفاقَ الإيمانِ ، وتستشعرَ شيئاً مِنَ الأُنْسِ بالقربِ مِن فاطرِها وبارئِها ، وتسْبَح في ملكوتِها .

فالإنسانُ إنسانٌ بروحِه ، وشفافِيَتِه قَبْلَ أنْ يكونَ إنساناً بجسدِه ، ولله درُّ مَن قال :

يا خادِمَ الجسم كم تشقى بخدمتِه ... أتطلبُ الربْحَ فيما فيه خسرانُ
أَقْبِلْ علَى النفْسِ واستكملْ فضائلَها ... فَأنت بالرُّوحِ لا بالجسمِ إنسانُ

ويتجَلَّى في الإيثارِ ، والإحسانِ ، ومعايشةِ آلامِ الآخرينَ ، ومقاسمتِهم السرَّاءَ والضرَّاءَ ، وذوقِ شيءٍ ممّا يجدونَ ، ولئِنْ ذَاقَه الصائمُ تعبُّداً واختياراً فلقدْ ذَاقَهُ الفقراءُ عجزاً واضطراراً ، ولئِنْ عاناهُ الصائمُ وقتاً

محدوداً فهو عندَهم عناءٌ ممدودٌ ، ولهذَا كان رمضانُ شهرَ الزكاةِ ، كما سمَّاه سيدُنا عثمانُ بنُ عفانَ رضي الله عنه ، ونهايتُه زكاةُ الفطرِ التي يشاركُ المسلمون فيها الإحساسَ بفرحةِ العيدِ ، فلا يَدَعُون أحداً منه إلا واسَوْه ، حتى إنّ فقراءَهم يُخرِجُون زكاةَ الفطرِ إنْ استطاعوا ليَذوقُوا طعمَ الإنفاقَ ، ولو مرةً في العامِ .

ويتجلَّى في الإمساكِ بزمامِ النفسِ عن اندفاعاتِها وحماقاتِ صاحبِها ، فالصائمُ مقيَّدٌ بشعورٍ دائمٍ يحملُه على الكفِّ عمَّا لا يليقُ ، وربّما أدركَ كثيرٌ مِن الصَائمين هذا المعنى قَبْلَ أنْ يُهِلَّ رمضانُ ، كما يحقِّقُ الصومُ معنى الانتسابِ الأمميِّ ، وتبعاتِه ، ومظاهرَه ، فهو عبادةٌ يشتركُ فيها المسلمون في كلِّ مكانٍ ممّا يعمِّقُ معنى الإخاءِ الدينيِّ ، والولاءِ الشرعيِّ ، ويذكِّرُ بوجوبِ الانعتاقِ مِنَ الروابطِ المنافيةِ لذلك ، وينهى أنْ توضعَ الروابطُ العاديةُ البشريةُ في مكانٍ غيرِ صحيحٍ ، فلا تتحوَّلُ إلى علاقةٍ تساوي العلاقةَ الربانيةَ بين أهلِ الإسلامِ ، وكم يتمنَّى المرءُ أنْ يستطيعَ المسلمون توحيدَ صيامِهم وفطرِهم ليتعمقَ معنى الأمَّةِ الواحدةِ ، ولتذوبَ الفواصلُ والعوائقُ التي تتراكمُ بمرورِ الزمانِ ، فيكونُ الجسدُ الواحدُ رقعاً متناثرةً ، يهدِمُ كلُّ طرفٍ منها ما بناهُ الآخرُ .

إنّ تجاوزَ هذه التناقضاتِ يتطَلَّبُ صِدقاً وارتفاعاً عن المصالحِ الخاصّةِ ، والانتماءاتِ الأرضيةِ ، وإيثاراً لروحِ الجماعةِ على أنانيةِ الذاتِ ، فهل نحن فاعلون ؟

والصومُ يذكِّرُ المسلمَ بالجهادِ الذي هو حراسةُ هذا الدينِ ، وذروةُ سنامِهِ ، وسطوتُه على مناوئيهِ ، فلقد كان تاريخُه الشهريُّ ملتبِساً بالمواقعِ

الفاصلةِ ، مِن بَدْرٍ تاجِ معاركِ الإسلامِ إلى فتحَ مكةَ ، التي كانت إيذاناً ببسطِ سلطانِه على جزيرةِ العربِ ، إلى حِطِّين ، إلى عينِ جالوتَ ، والكتابُ الذي آذنَ المسلمين بأنه قد كُتِبَ عليهم الصيامُ هو الذي آذنَهم بأنه قد كُتِبَ عليهم القتالُ ، لكنه ليس قتالاً بنصرةِ عنصرٍ ماجنٍ ، ولا لتسلُّطِ ظالمٍ طاغٍ ، ولا لجبايةِ أموالٍ حرامٍ ، ولا لاحتلالِ منابعِ الثرواتِ ، لكنه لتكونَ كلمةُ اللهِ هي العليا ، وحتَّى لا تكونَ فتنةٌ ، ويكونَ الدينُ كلُّه للهِ .

والجهادُ إيذانٌ ، لأنه ليس كلُّ الناسِ يؤمنون بالدعوةِ ، بل هناك الرؤوسُ المتغطرسةُ ممّا لا يلينُ إلا بالقوةِ ، والحديدُ بالحديدِ يُفْلحُ ، ولهذا بعثَ اللهُ رسولَه بالكتابِ وبالحديدِ ، فقالَ سبحانه :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد : ٢٥] .

فالكتابُ والبيناتُ أصلُ الرسالةِ ولبُّها ، والحديدُ سورها وحمايتُها ، والذين يقارِعون البغيَ والظلمَ في فلسطينَ وغيرِها من بلادِ المسلمين التي احتلّها الأعداءُ ، واستباحوا خيراتِها هم النوابُ عن الأمّةِ في الحفاظِ على هذه الشريعةِ العظيمةِ ، فحقٌّ على الأمّةِ أنْ تكونَ مِن ورائِهم بالنصرةِ الصادقةِ ، وليس بالعاطفةِ وحْدَها .

إنَّنا نشهدُ المزيدَ من إزهاقِ الأرواحِ في منطقتِنا ، ونرى الأمّةَ العربيةَ والإسلاميةَ تضيفُ إلى رصيدِها المزيدَ مِنَ الفَقْرِ والجوعِ ، والكثيرَ مِنَ الظلمِ ، والاضطهادِ ، كما رأيناها تبتعدُ أكثرَ فأكثرَ عن هويّتِها حتّى تكادُ

تذوبُ في هوياتِ الآخرين ، وفي المقابلِ كانت دولٌ أخرى تزدادُ صغياناً واستغلالاً ، تشرِّعُ للغيرِ قَتْلَها وتدميرَها ، ممّا أدّى إلى تزايدِ شدةِ التناقضاتِ والمفارقاتِ في مناطقَ مختلفةٍ مِنَ العالَمِ .

هل يعودُ رمضانُ الذي عرَفَه المسلمون ينبضُ بالروحِ ، والحياةِ ، والعطاءِ ، وليس بالنومِ ، وضياعِ الأوقاتِ ، والتسابقِ إلى الملذّاتِ ، والسهرِ في الخيامِ التي ترتَكَبُ فيها المعاصي والآثامُ .

جاءَ في تفسيرِ قولِه تعالى :

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة : ١٨٣] : « هذا تعليلٌ لِفَرَضِيَّةِ الصيامِ ببيانِ فائدتِه الكبرى ، وحكْمتِه العليا ، وهو أنّه يُعِدُّ نَفْسَ الصائمِ لتقوى اللهِ عز وجل بترْكِ شهواتِه الطبيعيةِ المباحةِ الميسورةِ امتثالاً لأمْرِه ، واحتساباً للأجرِ عندَه ، فتَتَرَبَّى بذلك إرادتُه على مَلَكَةِ تركِ الشهواتِ المحرَّمةِ ، والصبرِ عنها ، فيكون اجتنابُها أَيْسَرَ عليه ، وتَقْوَى نفسُه على النهوضِ بالطاعاتِ ، والاصطبارِ عليها ، فيكونُ الثباتُ عليها أَهْوَنَ عليه ، ولهذا قالَ ﷺ : « . . . والصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ . . . »[1] .

والصِّيامُ مِن أَجْلِ التَّقْوَى كما وردَ في الآيةِ ، ومنْ عظيمِ إكرامِ اللهِ عزّ وجلَّ أنّه جَعَلَ التقوَى مخرجاً للإنسانِ مِن كلِّ ضيقٍ ، قال تعالى :

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ ﴾ [الطلاق : ٢] ، وإنّ إعجازَ هذه الآيةِ في إيجازِها ، وبلاغتَها في إطلاقِها .

---

(١) الترمذي (٣٥١٩) ، ابن ماجه (١٧٤٥) ، الدارمي (٦٥٤) عن جرير النهدي عن رجل من بني سليم .

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنِّي لأَعْلَمُ آيَةً لَوْ أَخَذَ بِهَا النَّاسُ لَكَفَتْهُمْ :

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ ﴾ »(1) .

فحينما تضيقُ الأمورُ كما هي الآن ، وتستحكِمُ الحلقاتُ ، وتُسَدُّ المنافذُ ، وتنتصبُ العقباتُ ، ويقنَطُ الإنسانُ تأتي التقوى فتتَّسعُ بها المضائقُ ، وتُحَلُّ بها العُقَدُ ، وتفتَحُ بها المسالكُ ، وتُذَلَّلُ بها العقباتُ .

فمَنْ يتَّقِ اللهَ عندَ نزولِ المصيبةِ ، فيوحِّده ، ويصبر لحُكْمِه ، ويرَضَ بقضائه ، ويثبُت على مبدئِه ، واستقامتِه يجعلِ اللهُ له مخرجاً مِن هذه المصيبةِ ، فيبدلُّ ضيقَه فرَجاً ، وخوفَه أَمْناً ، وعُسْرَه يُسْراً .

فمَن يَتَّقِ اللهَ ، ولا يسمحْ للأفكارِ الزائفةِ أنْ تأخذَ طريقَها إلى عقلِه يجعلِ اللهُ له مخرجاً مِنَ الضياعِ ، والحيرةِ ، والضلالِ ، وخيبةِ الأملِ .

ومَن يتَّقِ اللهَ ، فيبرأُ مِن حوله ، وقوتِه ، وعلمِه يجعلِ اللهُ له مخرجاً ممّا كلَّفَه به بالمعونةِ عليه .

وَمَن يتَّقِ اللهَ فيقفْ عندَ حدودِ اللهِ ، ولا يقربْها ، ولا يتعدَّاها يجعلِ اللهُ له مخرجاً ممّا كلَّفه بهِ مِنَ الحرامِ إلى الحلالِ ، ومِن الضيقِ إلى السَّعَةِ ، ومنَ النارِ إلى الجَنَّةِ .

ومَن يتَّقِ اللهَ في كسبِ رزقِه ، فيتحرَّ الحلالَ الذي يُرضِي اللهَ عزَّ وجل يجعلِ اللهُ له مخرجاً مِن تقتيرِ الرزقِ بالكفايةِ ، ومن إتلافِ المالِ بحفظِه ونمائِه .

---

(1) سنن الدارمي (٢٧٢٥) .

ومَن يتّقِ اللهَ في اتِّباعِ السُّنةِ يجعلِ اللهُ له مخرجاً مِن ضلالِ أهلِ البدعِ ، ونتائجِ ابتداعِهم .

ومَن يتَّقِ اللهَ في اختيارِ زوجتِه ، وفي التعاملِ مَعَهَا يجعلِ اللهُ له معها مِن الشقاءِ الزوجيِّ مخرجاً .

ومن يتَّقِ اللهَ في تربيةِ أولادِهِ يجعلِ اللهُ له مخرجاً مِن عقوقِهم .

ومن يتَّقِ اللهَ في اختيارِ عملِه ، وحسْنِ أدائِه يجعلِ اللهُ له مخرجاً مِن إخفاقِه فيه .

لمَّا كانت النفسُ البشريةُ تتوقُ إلى تناولِ ما تشتهيه ، فإنّ مِن أعظمِ ما يزكِّيها ، ويطوعُها لطاعةِ اللهِ عز وجل أنْ تُدَرَّبَ على الصبرِ عن تناولِ الطيباتِ التي أباحَها اللهُ تعالى ، إذْ أَمَرَهَا بترْكِها ، ومِن أعظمِ شهواتِ النفسِ الطعامُ والشرابُ ، وغيرهما ، وقد حرَّمَ اللهُ على المؤمنِ هذه الأمورَ التي لا يستغني عنها في حياتِه كلِّها في نهارِ شهرِ رمضانَ بأكملِه ، فإذَا تَرَكها مخلصاً للهِ في تلكَ المدّةِ مِنَ الزمنِ ، فإنّه بذلك يكونُ جديراً بأنْ يكونَ مِنَ المجاهدينَ لأعدائِه الملازمين ، وهم نفسُه الأمّارةُ بالسوءِ ، والهوى المُرْدِي ، والشيطانُ المُغوِي ، والذي ينجحُ في هذا الجهادِ الأكبرِ يسهلُ عليه الجهادُ الأصغرُ ، وهو قتالُ عدوِّه الخارجيِّ ، ومَن لم ينجحْ في جهادِ عدوِّه الملازمِ له يصعبُ عليه جهادُ عدوِّه الطارئِ ، لأنّ الذي لم يُرَوِّضْ نفسَه على طاعةِ اللهِ بامتثالِ أمْرِه ، واجتنابِ نهيِه فيما هو أَخَفُّ عليه ، كالصيامِ مثلاً ، فمِنَ الصعبِ عليه أنْ يقفَ في الصفِّ لمقارعةِ الأعداءِ ، يستقبلُ بصدرِه ونحْرِه قذائفَ المدافعِ ، ورصاصَ

البنادقِ ، وأطرافَ الرماحِ ، وحدَّ السيوفِ .

حينما يكونُ المسلمون استثناءً سلبياً داخلَ مجتمعاتٍ أكثرَ تقدماً وتطوراً فهذا أمرٌ ينذر بالخطر ، لأنه يعطِي الآخرين انطباعاً مباشراً ، لأنّ سببَ هذا التخلفِ يعودُ إلى تعاليمِ الدينِ ذاتِه ، وهذا معنى قوله تعالى :

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

[الممتحنة : ٥]

المشكلةُ تعودُ إلى اغترارِ بعضِ المسلمين بانتسابِهم إلى هذا الدينِ ، ظانِّين أنه بمجرَّدِ الحصولِ على لقبِ (مسلم) يُعفِيهِم مِنَ الالتزامِ والتقيُّدِ بمنهجِ اللهِ ، أو أنّ الحصولَ على جانبٍ مِنَ الصلاحِ يُعفِيهم مِنَ استكمالِ النقصِ ، أو قبولِ النصيحةِ ، قال تعالى :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ [المائدة : ١٨] .

وذَكَرَ اللهُ لنا قصصَ الأقوامِ السابقةِ للاعتبارِ ، ولهذا قالَ سبحانه بعدَما ذَكَرَ قصةَ بني النضيرِ :

﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر : ٢] .

والاعتبارُ هو القياسُ ، والنظرُ ، ورَبْطُ الشيءِ بمثلِه ، فإذَا كان اللهُ سبحانه وتعالى يَعِيبُ على الأقوامِ السابقةِ مِنْ قَبْلِنا ألواناً مِنَ الانحرافاتِ والمخالفاتِ ، فما ذلك إلاّ لنجتنِبَها ، ولهذا كان مِمّا يقرأه المسلمُ في كلِّ صلاةٍ ، بلْ في كلِّ ركعةٍ :

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٦ـ٧] .

يقولُ العلماءُ :

﴿ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ هم الذين عرفُوا وانحرفوا ، و﴿ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ هم الذين ما عرفُوا وانحرفوا ، فمَن كان عنده علمٌ وصِدقٌ في تصوُّرَاتِه ، ولكن لم يكن عنده عملٌ فهذا مِن المغضوبِ عليهم ، ومَن لم يكن عنده تصوُّرٌ صحيحٌ ، وإنما كان عنده عملٌ على غيرِ هدًى مِنَ اللهِ وبصيرةٍ فإنّه مِنَ الضالّين ، ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٦ـ٧] .

إنّ مِنَ الحواجزِ التي تحُولُ بين الناسِ وقبولِ النصيحةِ هو ادعاءُ العصمةِ ، وعدمُ رؤيةِ العيوبِ ، لقد وردَ في القرآنِ الكريمِ فضلُ هذه الأمةِ ، والثناءُ عليها ، ولكنّ هذا الفضلَ ليس فضلاً يتوارثونه ، لأنّهم عربٌ ، وعاشوا في الأمصارِ ، وفي البلادِ العربيةِ ، فالأرضُ لا تقدِّسُ أحداً ، والقبيلةُ لا تقدِّسُ أحداً ، إنما يقدَّسُ الإنسانُ بعملِه ، ليس غير .

إنَّ مئاتِ الملايينِ مِن المسلمين اليومَ يَرَوْنَ أنّ مجرَّدَ انتسابِهم إلى هذا الدينِ يكفي لنجاتِهم في الآخرةِ ، ولصلاحِهم في الدنيا ، حتى لو لم يفهموا حقيقتَه ، ولم يطبِّقُوا تعاليمَه ، ولم يمتثِّلوا قِيَمَه ، وربَّما تجدُ عندَ أَحَدِهِم مِنَ الثقةِ بالفوزِ والنجاةِ في الدارِ الآخرةِ أعظمَ مِن ثقةِ العشرةِ المبشرين بالجنةِ ! وأمّا ما يتعلّقُ بالدنيا فربما تجدُ الواحدَ منهم يكدحُ فيها ليلاً ونهاراً ، ويضني بَدَنَه وجوارحَه ، ولكنْ مِن دونِ جدوى ، لأنه لم

يأخذْ بالأسبابِ ، ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [الكهف : ٨٤ـ٨٥] .

الكثيرون يطلبُون قضاءَ حوائجِهم ، وتفريجَ كروبِهم ، وسدادَ ديونِهم ، وتزويجَ عوانسهم[1] ، وإزالةَ مشكلاتِهم ، وردَّ غائبِهم ، ونصرتَهم على أعدائِهم بدعاءٍ مِن دونِ عملٍ ، أو يتوقَّعون الفرَجَ هديةً رخيصةً تأتي مِن دونِ ثمنٍ ، ولِمَ لا ؟ أَوَ لَيسوا بالمسلمين ؟! هنا موطِنُ الخَلَلِ ، ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

إنّ السننَ والنواميسَ لا تحابي ، ولا تجاملُ أحداً ، واللهُ تعالى يقولُ : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء : ١٢٣ـ١٢٤] .

إنَّ كَوْني مِنَ الصالحينَ لا يسمحُ لي أنْ أجعلَ هذا الصلاحَ تِرساً أرفعُه في وجهِ كلِّ مَن يريدُ نُصْحِي ، أو الاستدراكَ عليَّ ، أو تصحيحَ خطأٍ مظنونٍ أو مقطوعٍ ، وهل الصلاحُ إلاّ قَبولُ النصيحةِ مِنَ الآخرين ؟

إنّ الإسلامَ نفسَه دينُ عملٍ ، العملِ للدنيا ، والعملِ للآخرةِ ، والعملِ للنفسِ ، والعملِ للغيرِ ، ليستِ المشكلةُ إثباتَ حُسْنِ النيةِ فقط ، فديننُا هو دينُ النياتِ الطيباتِ ، والأعمالِ الصالحاتِ ، أمّا الطاعةُ فهي للهِ وحدَه ، مع الالتزامِ بالإسلامِ ، وفي الحديثِ الشريف عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

(١) قال في لسان العرب (مادة عنس) : [عَنَسَتِ المرأة تَعْنُس ، بالضم ، عُنُوساً وعِناساً ، وهي عانِس ، من نِسوة عُنَّسٍ ، وعَوَانِسَ ، وعَنَّسَتْ ، وهي مُعَنِّس ، وعَنَّسَها أَهلُها : حَبَسُوها عن الأزواج . . .] .

قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ »[١] .

وإنّ المرءَ يُثابُ على عملِه ، حتى على عملِه الدنيويّ ، ولذلك يقولُ النبيُّ ﷺ فيما رواهُ البيهقيُّ بسندٍ جيد عن عائشةَ رضي اللهُ عنها : « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ »[٢] ، وهذا يشملُ كلَّ عملٍ يقومُ به المرءُ ممّا هو داخلٌ في دائرةِ المباحِ ، فكيف بالمستحبِّ أو الواجبِ ، سواءٌ كان وجوبُه بأصلٍ شرعيٍّ ، أو كان بتحمُّلِه المسؤوليةَ وتبعاتِ المسؤوليةِ بموجبِ العقدِ والاتفاقِ .

وفي الحديثِ الآخرِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لاَ يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ »[٣] .

وهكذا يرفعُ الإسلامُ مِن قيمةِ العملِ حتى حينَ يتيقَّنُ الإنسانُ ألاَّ ثمرةَ تحسَبُ له مِن ورائِه ، ويوجِّهُ المسلمَ إلى احتسابِ الأجرِ والثوابِ ، وهو يغرسُ فسيلةً قد ينتفعُ بها إنسانٌ أو طيرٌ ، يحتسبُ هذا عندَ اللهِ .

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٦٤) ، ابن ماجه (٧٩) .

(٢) البيهقي في الشعب (٥٣١٢) ، والطبراني في المعجم الأوسط (٨٩٧) عن عائشة .

(٣) مسند أحمد (١٣٠٠٤) ، قال المناوي في فيض القدير : (٣/ ٣٠) : [إن قامت الساعة أي القيامة ، سمِّيَتِ به لوقوعها بغتة ، أو لسرعة حسابها ، أو لطولها ، فهو تلميح ، كما يقال في الأسود : كافور ، أو لأنها عند اللهِ تعالى على طولها كساعة من الساعات . . .وفي يد أحدكم أيها الآدميون فسيلةٌ ، أي نخلة صغيرة ، إذ الفسيلُ صغارُ النخلِ ، وهي الوَدِيُّ ، فإن استطاع أنْ لا يقوم مِن محله ، أي الذي هو جالسٌ فيه حتى يغرسها فليغرسْها] .

ومِن الواجبِ الملِّحِ التربيةُ على هذا ، حيثُ إنّ النسبَ الشريفَ للإسلامِ يتطلَّبُ أنْ يكونَ المرءُ على القدرِ الشرعيِّ المقبولِ اللازمِ مِن أداءِ واجباتِ هذا الانتسابِ ، وتركِ منهياتِه أو محرَّماتِه .

ويجبُ أيضاً أنْ يتمَّ بوضوحِ الفصلُ بين الإسلامِ وممارسةِ المسلمين ، أفراداً أو جماعاتٍ أو كياناً ، فالإسلامُ دينٌ ربّانيٌّ محكَمٌ مهيمِنٌ ، وهو المرجعيةُ للحكمِ على الأشياءِ وتصحيحِها ، أمّا عملُ الناسِ وسلوكُهم فهو قابلٌ للنقضِ ، والمراجعةِ ، والتصحيحِ ، والملاحظةِ ، والنصيحةِ .

* * *

آيةُ اللهِ في مخلوقاتِه : الذُّبابُ

يقولُ اللهُ تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج : ٧٣] .

قالوا : إزعاجُ الذبابِ ، وإيذاؤُه ، وما يُسَبِّبُه من أمراضٍ قد صَرَفَ الأنظارَ عن التأمُّلِ في هذه الحشرةِ ، التي تُعَدُّ أعجوبةً في الخَلْقِ الإلهيِّ .

لقد ضربَ اللهُ سبحانه وتعالى للناس الذبابةَ مثلاً ، هذا المخلوقُ الضعيفُ المستقذَرُ ، الذي يتكاثرُ بسرعةٍ جنونيةٍ ، والذي يبدو ضعيفاً ، فلو أنك رششتَ مكاناً موبوءاً بالذبابِ ، وقضيتَ على كلِّ الذبابِ إلا ذبابةً واحدةً لأنتجتْ هذه الذبابةُ جيلاً من الذبابِ يقاوِم هذه المادّةَ التي رشَشْتَها

في هذا المكانِ ، فتصنيعُ المضاداتِ الحيويةِ عند الذبابِ شيءٌ معجزٌ ، أيُّ شيء يقضي على الذبابِ تصنِّع الذبابةُ في أجهزتِها الدقيقةِ مضاداً حيويًا يُكسِبُها مناعةً ضد هذه المادّةِ الفعّالةِ ، حتى إنّ الذبابَ إذا ماتَ في البردِ ينجبُ جيلاً يقاوِمُ البردَ .

كُبِّرَتْ عينُ الذبابةِ مئاتِ المراتِ ، فكان من هذا التكبيرِ العجبُ العجابُ ، آلافُ العدساتِ المرصوفةِ بعضُها إلى جانبِ بعضٍ تحقِّقُ للذبابةِ رؤيةً كاملةً ، فهذا المخلوقُ الضعيفُ الذي يشمئِزُّ الناسُ منه يستطيعُ أن يُنَاوِرَ مناورةً لا تستطيعُ أعظمُ الطائراتِ الحربيةِ وأحدثُها أنْ تفعلَ فعْلَها ، إنها تسيرُ بسرعةٍ فائقةٍ بالنسبةِ إلى حجمِها ، وتستطيعُ أنْ تنتقلَ فجأةً إلى زاويةٍ قائمةٍ ، وتستطيعُ أنْ تنتقل من سقفٍ إلى سقفٍ ، وهذا شيءٌ لا تستطيعُ طائرةٌ في الأرضِ أنْ تفعلَه ، قال تعالى :

﴿ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ .

أما الذي يَلفت النظرَ فحديثُ سيِّدِ البشر ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي شَرَابِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ ، ثُمَّ لِيَنْزِعْهُ ، فَإِنَّ فِي إِحْدَى جَنَاحَيْهِ دَاءً ، وَالأُخْرَى شِفَاءً »[1] .

وفي روايةٍ[2] : « فأَمقِلُوهُ » ، أي اغمِسوه .

أَكَّدَ العلمُ الحديثُ صحّةَ هذا الحديثِ ، فقد كُشفَ أنّ في بعضِ جناحي الذبابةِ مادّةً ترياقيةً مضادةً للجراثيمِ ، ولأنواعِ الميكروبات ، فإذا

---

(١) البخاري (٣١٤٢) ، وأبو داود (٣٨٤٤) ، وابن ماجه (٣٥٠٥) ، وأحمد (٧١٤١) .

(٢) أبو داود (٣٨٤٤) عن أبي هريرة ، وابن حبان (١٢٤٧) عن أبي سعيد .

علِقَ بأرجلِ الذبابةِ بعضُ الجراثيمِ ، أو المكروباتِ ، أو البكترياتِ الضارّةِ ، ووقعَ هذا الذبابُ في سائلٍ فعليكَ أنْ تغمسَ الجناحَ الثانيَ ، فإنّ في بعضِ الأجنحةِ الدواءَ الترياقَ المضادَّ لهذه الجراثيمِ ، قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الحج : ٧٣] .

مِن وظائفِ هذه الحشرةِ أنها تُنَقِّي الهواءَ بقضائِها على النباتاتِ والعضوياتِ المتفسِّخةِ ، ولكنّ الذبابةَ الواحدةَ تحمِلُ في طَيَّاتِها ما يزيدُ على خمسمئةِ مليونِ جرثومٍ ، ووجودُ الذبابِ في مكانٍ ما مؤشِّر على أنَّ هذا المكانَ ليس نظيفاً ، فكأنّها رادعٌ قويٌّ كي نُنَظِّفَ أَفْنِيَتَنَا كما وجَّهنا النبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ .

إنها سريعةُ التنقُّلِ ، بينما هي على مائدتِك إذا هي في يومٍ ثانٍ في مكانٍ تزيدُ مسافتُه على عشرة كيلو متراتٍ ، وتنجبُ جيلاً كاملاً كلَّ عشرةِ أيامٍ ، توالدُها عجيبٌ .

أمّا الشيءُ الذي لا يكادُ يُصَدَّقُ فهو أنّ جُملَتَها العصبيّةَ تشبهُ الجملةَ العصبيةَ عند الإنسانِ ، وعينُ الذبابةِ غايةٌ في القوّةِ ، وغايةٌ في قوّةِ الإبصارِ ، ولها إدراكٌ عالِي المستوى ، وقد تتصرَّفُ بغضبٍ شديدٍ إذا ما لاح لها خطرٌ ، فهي تغضبُ ، وتحسُّ بالألمِ ، ووزنُ دماغِها واحدٌ من مليونِ جزءٍ من الغرامِ ، وهو يعملُ بأعلى كِفايةٍ ، وفي الذبابة جُمْلَةٌ مِن الغُدَد ، ولها ذاكرةٌ تستمرُّ دقيقتين .

والذبابُ أنواعٌ منوَّعةٌ تزيدُ على مئاتِ ألوفِ ، منه ذبابٌ مفترِسٌ ، ونوعٌ كالنحلةِ يمتصُّ الرحيقَ ، ونوعٌ يُخَمِّرُ الفاكهةَ ، ونوعٌ ينافِسُ الطائراتِ في مناورَتِها ، وفي سرعتِها ، وتستطيعُ أنْ تُضَلِّلَ مُطارِدَها ، وتسخرَ منه .

فإذا كان الخلْقُ جميعاً في أرقى عصورِهم العلميّةِ عاجزين عن أنْ يخلقوا ذباباً فقد قال الخلاَّقُ العليمُ :

﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ .

كيف عَرَفَ الحديثُ النبويُّ هذه الحقيقةَ ، مِن أين عرفَها ؟ أكان هناك تحليلٌ عنده ؟ أكان هناك معاملُ للتحليل ؟ أكان هناك ميكروسكوبات ؟ كيف قال النبيُّ ﷺ : « إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي شَرَابِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ ، ثُمَّ لِيَنْزِعْهُ فَإِنَّ فِي إِحْدَى جَنَاحَيْهِ دَاءً ، وَالأُخْرَى شِفَاءً » ، وكيف أنّ العلمَ الحديثَ أثبتَ ذلك ؟

إنْ هو إلا وحيٌ يوحَى ، وإنّ السنةَ المطهرةَ ، بل إنّ ما تواترَ من السنةِ المطهرةِ قطعيُّ الثبوتِ ، ومنه ما هو قطعيُّ الدلالةِ ، ومَن أنْكَرَهُ فقدْ كفرَ .

دقّقوا في آياتِ اللهِ التي بثَّها في الكونِ ،

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس : ١٠١] .

قال ابنُ القَيِّمِ في (الطبِّ النبويِّ) معلِّقا على حديث إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ

فِي شَرَابِ أَحَدِكُمْ. . . : « هذا الحديثُ فيهِ أمْرانِ ، أمرٌ فقهي ، وأمرٌ طبيٌّ. . . وأما المعنى الطبِّي فقال أبو عبيد : معنى أمقِلوه اغْمسوه ، ليخرجَ الشفاءُ منه كما خرجَ الداءُ. . . واعلمْ أنّ في الذبابِ قوةً سُمِّيةً يدلُّ عليها الورمُ والحكّةُ العارضةُ عن لسعٍ ، وهي بمنزلةِ السلاحِ ، فإذا سقطَ فيما يؤذيه اتّقاهُ بسلاحِه ، فَأَمَرَ النبيُّ ﷺ أنْ يُقابَلَ تلك السّمِّيةَ بما أوْدَعَه الله سبحانه في جناحِه الآخرِ من الشفاءِ ، فيُغمَسُ كلُّه في الماءِ والطعام ، فيُقابل المادةُ السمّيةُ المادّةَ النافعةَ فيزولُ ضررُها ، وهذا طبٌّ لا يهتدي إليه كبارُ الأطباء ، وأئمتُهم ، بل هو خارجٌ من مشكاةِ النبوةِ ، ومع هذا فالطبيبُ العالمُ العارفُ الموَّفقُ يخضعُ لهذا العلاجِ ، ويقرُّ لمن جاءَ به بأنه أكملُ الخلْقِ على الإطلاقِ ، وأنه مُؤَيَّدٌ بوحيٍ إلهيٍّ خارجٍ عن القُوى البشريةِ »[1] .

* * *

(١) الطب النبوي (ص ٨٩) ، وزاد المعاد (٤/ ١١٢) .